المبحث الخامس

الاتجاه إلى البحث البلاغي

على أنه بَعد هذا الاختلاط بين البلاغة وفنون اللغة على هذا النحو ظهرت كتب اتخذت من البلاغة قبلة لها ، فولت وجهها شطرها ، وتألقت المباحث البلاغية على صفحتها ككتاب (البديع) لابن المعتز الذي مال به مؤلفه إلى ناحية البلاغة المتخصِّصة ، وجعل الاستعارة مع التجنيس والمطابقة ، وردّ الإعجاز على ما تقدّمها ، والمذهب الكلامي من البديع وككتاب (الصناعتين) لأبي هلال العسكري صنعتي الشعر والنثر الذي جهر مؤلفه في صراحة بأنه لم يؤلف كتابه على طريق المتكلمين وإنما ألفه على طريقة صناع الكلام من الكتاب والشعراء ، وذلك لتزاحم الأمثلة والشواهد من حُرِّ القول ، ورائع البيان في جل صفحاته من النصوص التي يزخر بها الكتاب وهو إنما يجيء بها من القرآن الكريم ، ومن الحديث الشريف ، ومن كلام الصحابة - رضي الله عنهم أجمعين - ومن أشعار المتقدمين والمحدثين على نحو يروق ويمتع والكتاب جاء في عشرة أبواب خص منها بابا لموضوع البلاغة وتعريفها ، وما تردّدَ على ألسنة السابقين من بيان حدِّها وبابا ثانيا : لتمييز الكلام جيده من رديئه وبابا ثالثا لترتيب الألفاظ ومعرفة صنعة الكلام وبابا رابعا : تحدث فيه عن حسن النظم ، وجودة الرصف ، وخص الباب الخامس : للإيجاز والإطناب وفي الباب السادس : تحدث عن السرقات الشعرية وقسمها إلى مستحسنة ومستقبحة وخص الباب السابع : للتشبيه وهو فيه متأثر بالرماني وجعل الباب الثامن : للسجع والازدواج والتاسع لفنون البديع وجعل العاشر لحسن المبادي وجودة المقاطع والقوافي ودقة الخروج من النسيب إلى المديح .

* * *

هذا أما ابن رشيق القيرواني فيعد كتابه **(العمدة في صناعة الشعر ونقده)** على رأس ما كتب وحاول أن يجمع في أبوابه التي بلغت نحو مائة باب ما كتب عن مسائل البيان والبديع وصنعة الشعر عند كل من سبقه . والكتاب جزآن وفي الجزء الأول حديث عن الشعر مبينا أن الإسلام لم يحاربه وجره ذلك إلى الحديث عمّن رفعه الشعر ، ومن وضعه . ثم تحدث عن قضية اللفظ والمعنى وبين أنهما متلازمان فاللفظ جسم روحه المعنى ، وما يوصف به أحدهما يوصف به الآخر بلا فصْلٍ ولا نزاع فما يصيب اللفظ من هزال وغرابة يلحق بالمعنى وكذلك المعنى إن وُسِمَ بالوضوح أو الغموض كان وصفًا للفظ الذي يحتضنه إذ هما متلازمان لا ينفكان ولا ينفصلان . على أن للشعراء ألفاظهم التي لا يتجاوزونها ، ولا يتخطونها ، وللكُتّاب ألفاظهم الكتابية التي اصطلحوا عليها ، ولا يدعونها إلى غيرها :

وما يهمنا أنه لا يهمل الحديث عن البديع وفنونه مبينا أن ابن المعتز أول من فتّح أكمامه ، كما يولي اهتماما بالمجاز مؤيدا حديثه عنه بما ذكره ابن قتيبة خاصًّا بالمجاز من أنه طرق القول التي تحتاج إلى شيء من التأويل ثم إنه أبلغ من الحقيقة ، كما يتحدث عن الاستعارة والتجنيس وأقسامه والالتفات ، والمبالغة ، والغلو والحشو ، واستدعاء القوافي ، والمذهب الكلامي ، والتضمين وبمثل هذا يكون ابن رشيق قد درس فنون البديع ومن الظاهر أنها كانت تحتوي في عصره على الصور البيانية .

دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للإمام عبد القاهر

هذان الكتابان على رأس الكتب التي تخصصت في البحث البلاغي ؛ إذ فيهما قد جمعت المسائل ، وضُمَّت النظائر ، وصار علم البلاغة فنًّا مميّزًا واضحًا على أننا يجب ألا يغيب عنا أن ما رواه الرواة عن الكُتّاب ، والأدباء ،

والنقاد ، والشعراء كان يمثل رافدا من الروافد التي شقت لها مجرى عميقا في ذهن الإمام عبد القاهر الذي وقف أمامها طويلا ، وأدارها في عقله كثيرا مما ساعدت في تشكيل فكره ، وتكوين رؤيته الواضحة لمباحث البلاغة ولأصولها العامة ، وقضاياها الكلية ، وظل مَدَدُها المتتابع إلى جانب ما تناثر على هامش العلوم الأخرى من نظرات بلاغية ، وملاحظات بيانية المناهل التي ينهل منها والذي حوّلها إلى فن داني القطوف ، متنوع الزهور ، حلو الثمر بعد أن فضّ مَغَالِيقَها ، ووسّع من دائرتها ، وأمدها بضياء من فكره الثاقب ، ونظره الحاد ورؤيته البعيدة .

هذا والإمام عبد القاهر قد تلقّف مرْويّات الشعراء والمتأدبين وجال في ملاحظات المتكلمين والمفسرين ، وأعطاهما من ذوْب نفسه ، ومن عصارة قريحته ، وحول ذلك إلى كتابيه المتميزين ، واللذين لهما من الجهارة وعلو الشأن ، ورفعة المكان في الفن البلاغي ما لا يمكن أن يقترب منهما أيُّ كتاب آخر في عالمهما اللذين يمثلانه .

منهج عبد القاهر في تحليل النصوص

يجب أن نعلم أولا أن البلاغة إنما نشأت في ظلال النصوص الجيدة ومن خلالها فكل مصطلح بلاغي هو ثمرة ناضجة لقيمة جمالية أثبتت خلودها عبر الأيام فجسّدت في هذا المصطلح وغدت من تراث الأمة الفني تعلم الناشئة ، وتسهم في تكوين ذوقها ، وبذلك يتميز ذوق كل أمة بحصيلتها من الثمار البلاغية التي كانت في الأصل قيما تعبيرية وشعورية رضي الذوق العام عنها ، وأعجب بها فعاشت طويلا فسَوّغ لها ذلك أن تدخل في تراث الأمة عن طريق تجسيدها في مصطلح بلاغي ، وبذلك تكون البلاغة وليدة دراسة النصوص

الجيدة ، والتفطّن إلى ما فيها من المحاسن والمساوئ ، وعلى هذا فالبلاغة هي الثمرة الناضجة للدراسة الكاشفة لنصوص الملهمين من المبدعين .

هذا والمنهج الذي يجب أن يُستخدم في دراسة النصوص وتحليلها هو منهج الإمام عبد القاهر وكل ما يعين عليه ، ويساعد ، ويقوّي . وهو منهج يقوم على مساءلة اللغة ، واستبطان أعماقها ، وإدراك خصائصها ، ومعرفة كل دقائقها معرفة ذكية واعية تبيّن أن السياق هو الذي يكشف للدارس عما في الكلمة من قوًى معبّأة مشحونة تملأ الخيال بالتأمل الحالم ، والذهن بالتفكير الرفيع حين ترى سياقها يفصح عما تبعث به في مكانها من الطرب الباسط الذي كان ثمرة لِمَا بها من الصور والمشاعر نتيجة للعلاقات القوية لما بين جاراتها السابقات عليها والمتأخرات عنها في سياقها الذي تحركت من خلاله ، وأخذت مكانها الصحيح بين لآلئه وجواهره على نحو لا تجد النفس وجودها معه إلا مسبوهةً[1] مدهوشة لما أضفاه السياق عليها من سمو ورفعة وحياة ثم إن الرجل في مصاحبته للغة ، ومساءلته لها لمعرفة أسرارها ، وكشف مضمراتها ، وإبانة خوافيها ، ودقائقها ، وتجلية غوامضها ، وإشاعة سحرها وجمالها ، ونشر أضوائها ، وما بها من ظلال تكشف عن خصوبتها ، وعطائها وغزارتها ، وعمقها ، وقدرتها على أن تبعث الحرارة والمتعة تراه يقف أمام كل حرف ، وكلمة ، وجملة يذكر ما تتّسم به من أحوال وهيآت ، وما تتدفق به من قيم شعورية ، وخطرات نفسية ، ثم يوضح دور كل حرف أو كلمة مع التي تسبقها والتي تليها في أداء هذه القيم ، وكيف استطاعت الكلمة من خلال تحركها في هذا المجال أن تقوم بأداء وظيفتها بعد انصهارها مع غيرها ، وتفاعلها في سياقها تفاعلاً يثير في النفس الإعجاب والدهش .

---

(١) رجل مَسْبُوه : مُذَلّه ذاهب العقل . لسان العرب مادة (سبه) .

انظر إلى الرجل وهو يبين لك أن في الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته فيتوقف أمام أبيات (كثيِّر) الذائعة التي أثارت حولها جوًّا من الجدل منذ ابن قتيبة حتى العقاد فيحلّلها تحليلا يبرز جمالها ، ويكشف عن روعة الصنعة فيها . وهو حين يفعل هذا لا يمضي بعيدا عن الصياغة ، وإنما يظهِرُ ذلك من خلال العلاقات الحية التي أمامه في النّص والتي تملأ شغاف القلب بالإعجاب .

يقول كثيِّر :

ولما قضينا مـن مِنًـى كُـلَّ حاجَـةٍ ... وَمَسَّحَ بالأركان مـن هـو ماسـح

وشُدَّتْ على دُهْمِ المَهَـارَى رحالنـا ... ولم ينظُرْ الغَادِي الـذي هـو رائـحُ

أخَـذْنَا بـأطْرَافِ الأحاديـثِ بيننـا ... وَسَـالَتْ بِأعْنَـاقِ المَطِـيِّ الأبـاطِحُ

ويمضي يحللها تحليلاً يستنجد بكل ما في اللغة من طاقات ، وبكل ما تبعث به من حيوية ، وفكر ، وإحساس ، وصوت وحركة وصورة على نحو يُقوِّي فينا الشعور بما فيها من جمال وفن ، بحيث نستطيع أن ندرك الفرق الكبير بين رؤيته وذوقه البلاغي السليم ، وبين رؤية ابن قتيبة[1] الذي خذلته روحه الأدبية الصافية حين قاس الشعر بمقياس العلم ، وقسّمه قِسْمَة عقلية خالصة وجعل هذه الأبيات أحد أقسام هذه القِسْمة فلم يتوقّف أمام ما بها من خيال ، ولم ير ما فيها من حركة ، ولم ينظر إلى ما بها من عاطفة ، وما يشيع في داخلها من روح الأُنْس والرضى والبهجة لهؤلاء الآيبين العائدين الذين ظفروا بأداء مناسك الحج التي تأنس النفس فيها إلى موطن الإلهام وتسكن الروح فيها إلى منبت العقيدة ، وينبسط الشعور بذلك الإشراق الإلهي في البلد الأمين . وإنما وقف أمام الفكرة يسردها سردا من غير محاولة لإدراك كيف

(١) انظر تعليق ابن قتيبة على هذه الأبيات في الصناعتين لأبي هلال العسكري ص٧٣ ، ٧٤ ، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

أشاع الخيال، الجمال، فيها، وكيف بعثها حيّة جيّاشة وكيف جعلها تتلوّن، وتبدو خصبة مثمرة، مما يكشف طبيعة مزاجه، واتجاه تفكيره، وروح أسلوبه.

انظر إلى عبد القاهر وهو يقلّب الرؤية، ويديم النظر بعد أن ذكرها فيقول: [1] «ثم راجِعْ فِكرتَك، واشْحَذْ بصيرتك، وأحسن التأمُّل، ودع عنك التجوّز في الرأي ثم انظر هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم مُنْصَرَفًا إلا إلى استعارةٍ وقعت موقعها وأصابت غرضها، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان حتى وصَلِ المعنى إلى القلب، مع وصول اللفظ إلى السمع .... وذلك أن أول ما يتلقّاك من محاسن هذا الشعر أنه قال:

ولما قضينا من مِنًى كلَّ حاجة

فعبّر عن قضاء المناسك بأجمعها، والخروج من فروضها وسننها من طريق أمكنه أن يقصر معه اللفظ وهو طريقة العموم، ثم نبه بقوله:

ومسّح بالأركان من هو ماسحُ

على طواف الوداع الذي هو آخر الأمر، ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر ثم قال:

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا

فوصل بذكر مسح الأركان، ما وليه من زم الركاب، وركوب الرُّكبان ثم دلّ بلفظة [الأطراف] على الصفة التي يختص بها الرِّفاق في السَّفر من التصرف في فنون القول، وشجون الحديث، أو ما هو عادة المتظرفين [2] من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء، وأنبأ بذلك عن طيب النفوس، وقوة النشاط، وفضل الاغتباط، كما توجبه ألفة الأصحاب وأنَسَة الأحباب وكما يليق بحال من وفِّق لقضاء العبادة الشريفة ورجا حسن الإياب .... ثم زان ذلك كله

(١) أسرار البلاغة ١/١١٤، ١١٥، تحقيق خفاجي.

(٢) من الظرف، وهو: البراعة، وذكاء القلب، وبلاغة اللسان، وحُسن العبارة.

باستعارة لطيفة طبق فيها مَفْصِل التشبيه ، وأفاد كثيرا من الفوائد بلطف الوحي والتنبيه ، فصرح أولا بما أومأ إليه في الأخْذ بأطراف الأحاديث من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرَّواحل ، وفي حال التّوجه إلى المنازل وأخبر بعد بسرعة السَّيْر ، ووطاءة الظَّهْر ، إذ جعل سلاسة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح ، وكان في ذلك ما يؤكد ما قبله ؛ لأن الظهور إذا كانت وطيئة وكان سيرُها السَّيْرَ السهل السريع زاد ذلك في نشاط الرُّكبان ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طِيبًا .

ثم قال : «بأعناق المطي» ولم يقل «بالمطي» ؛ لأن السرعة والبطء يظهران غالبا في أعناقها ويبين أمرهما من هواديها وصدورها وسائر أجزائها تستند إليها في الحركة وتتبعها في الثقل والخفة ويعبر عن المرح والنشاط إذا كانا بأفاعيل لها خاصة في العنق والرأس ، ويدل عليها بشمائل مخصوصة في المقاديم» .

أرأيت إلى أي مدًى يقف الإمام عبد القاهر أمام ما في الصياغة من مزايا تجدّد صنْعة البلاغة فيكشف عنها ، ويبيّن أنها في براعتها سر الإبداع ؟

أرأيت إلى الرجل يأخذ بيدك في ذكاء ، ويمضي معك في قدرة وفهم ليريك من خلال التحليل المستفيض غزارة اللغة ، وخصوبتها ، ومدى قدرتها على أن تعبّر عن العلاقات الجديدة للحياة من خلال اعتماد كل عنصر من عناصر العمل الأدبي على بقية العناصر الأخرى ، وكيف تتعاون وتتساند في ترتيب وتواؤم وانسجام ترى فيه الجزء مرتبطا بالكل ، والكلَّ مشدودا إلى الجزء ارتباطا ينشر أضواء الجمال الباهر على جميع أطراف العمل الأدبي ؟

وهو بهذا يأخذ بيدك ، ويقودك إلى المنهج اللغوي ، الذي يقضي بأن الجودة والرداءة في العمل الفني إنما تُقاس بمقدار ما يكون في لغة المبدع من خصائص في صياغتها ، واكتشاف العلاقات والارتباطات بين أجزاء العمل

وجَعْل هذا أساسًا لدراسة الأدب ، والكشف عن معاني النحو الذي جعل النظم يقوم عليها ويُبْنَى على وجودها .

فمعاني النحو عند صاحبنا في هذا الحقل وسيلة ضرورية من وسائل نقل الأحاسيس ونفض المشاعر ، واستثمار الألفاظ استثمارا ذكيا بما فيها من طاقات غير محدودة وعلى هذا الأساس ومن خلال ذلك النموذج الذي نقلناه على الرغم من طوله عن الإمام عبد القاهر ورؤيته لمظاهر الجمال الفني في أبيات (كثيِّر) والتي فصّلها وفضّلها مع اختلاف رؤية الناقدين لها لندلّل على أهميّة الذوق البلاغي في معالجة النصوص ، وفهمها ، والحكم عليها .

أقول : على أساس هذا تستطيع أن تدرك قيمة اللغة عند عبد القاهر ، وكيف تجلّت قدرته في استنطاقها ، وكشف ما تحمله ألفاظها من شحنات عاطفية حية ، وما توحي به من أحاسيس نفسيةٍ ، وكيف يخلع السياق عليها من المعاني بحيث لا تستطيع أن تفيض بما تتدفق به من مشاعر وخواطر ومنازع إلا من خلال مواقعها في الجمل ، وارتباط بعضها ببعض ارتباطا يجعل منها شيئا واحدا لا يمكن أن يتقدم أحد عناصره وأجزائه على بعضها الآخر أو يتأخر عنه وإلا اختل النظم ، وفسد العطاء ، وغابت القيمة المتولدة عن هذا التأليف المتقن المجوَّد الذي قضت به أحكام النظم فجاء على نحو مثير عجيب .

وبهذا يتخذ عبد القاهر من معاني النحو وسائل للتصوير والتأثير ، وتصبح كالأصباغ التي تُعمل منها الصور والنقوش المستخدمة في جمال الصورة ولذا يصرح بهذا فيقول : [1] « وإنما سبيل هذه المعاني ـ يقصد معاني النحو ـ سبيل الأصباغ التي تُعْمَلُ منها الصور والنقوش ، فكما أنك ترى الرجل قد تَهَدَّى في الأصباغ التي عمل منها الصورة والنقش في ثوبه الذي نسج إلى ضرب من

(١) دلائل الإعجاز صـ ٦١ طبعة المنار .

التّخيُّر والتدبُّر في أنفس الأصباغ وفي مواقعها ومقاديرها ، وكيفية مزجه لها وترتيبه إياها ، إلى ما لم يتهدّ إليه صاحبه فجاء نقشه من ذلك أعجب ، وصورتُه أغربَ ، كذلك حال الشاعر والشاعر في توخّيهما معاني النحو ووجوهه التي علمت أنها محصول النَّظْم».

ومن المعروف أنّ هذه الأصباغ التي شبه بها الرجل معاني النحو تختلف في ثوب عنها في آخر تبعًا لإبداع الصائغ ، وقدرة الناقش ، وحسن توفيقه في المزج بين الألوان والظلال ، فيختلف جمال النقش في ثوب عنه في آخر . فقد يكون في ثوب فاتنا جميلا ويكون في آخر قبيحًا دميمًا ويكون في ثالث متوسطا بين الحسن والقبح حسب مهارة الصانع ، وروعة الصنعة . أما المادة فهي عند الجميع واحدة بلا تفريق ، ولا تفضيل ، ولكن الصنعة في مكان قد أوتيت من القوة في الفن ، والعبقرية في النمنمة ، والنصاعة في الأصباغ ، والاختلاف في الألوان ، والتنوع في الصور بما لا تملك النفوس معها إلا أن تهتف بجمالها ، وتفتتن بسحرها ، وتطرب لها ، وتهتز وتعجب .

ومثل هذا الذي تراه في الثياب المنمنمة والأصباغ التي تملأ الشعور بالطرب واللذة تراه مع الشاعر والكاتب في نظمهما من مفردات اللغة فرائد وقلائد حين يتوخيا معاني النحو ووجوهه التي هي محصول النظم ، فالصورة التي رأيتها في أبيات (كثيِّر) والتي شاهدتها من خلال استعارة السيلان للسير السهل اللين الوادع في هذه الأباطح التي تمتد في الأرض رائعة جميلة لكن مجيئها من خلال السياق زادها جمالا فوق جمال ، وسحرا فوق سحر ترى السير سيلا وترى هذا السيل تسيل به الأباطح نفسها ولا يسيل عليها ، إذ تراه من الكثرة والتدافع بحيث يُخيل إليك أن الأباطح نفسها هي التي تسيل وهي التي تقذف بالعباب واللج .

ومن هنا يظهر لنا أن الصورة الاستعارية إنما هي صورة في سياق ويجب أن ينظر إليها من خلال هذا السياق الذي انتظمت فيه .

هذا وقيمتها الفنية إنما تنبع من رؤيتها رؤية شاملة مع جاراتها ودراستها في إطار مجموعة العلاقات التي تربط الكلام بَعْضَه ببعض ، وتجعل له هيئة خاصة وسَمْتا واضحا جميلا .

وهذا المنهج الذي شق طريقه ، وحدّد معالمه الإمام عبد القاهر الجرجاني هو المنهجُ الذي يجب أنْ يسود في حقل الدراسات الأدبية ؛ لأنه المنهج التطبيقي ، الذي يكشف عن جمال اللغة ، ونفحاتها القدسية ، وبيانها الذي يتجدّد على الدهر ، ويزهو على الزمن ، ففي طريقة الرجل التطبيقية إبراز للخصائص اللغوية المميِّزة للجمال وعلى هذا فالتفاوت بين الأعمال الأدبية في الأداء الحسن الجميل ، إنما يتحقق بمقدار ما يتوفر فيها من العناصر المميِّزة للجمال ، وكلما غاب عنصر منها وضعف ، قل الشعور بالجمال ، وخبا الإحساس به وانطفأ .

والذي ساعد عبدَ القاهر وأعانه على إقامة منهجه هذا هو الإدراك الذوقي العالي لكل المفارقات التي تكون في الاستخدام اللغوي للكلمات وكأنّ الكلمات عنده أشبهُ ما تكون بالكائنات الحية التي تتكلم ، وتتحرك وتجيش فهي ليست عَيِّية صامتة ، وإنما لها أصْوات ، وفيها أحاسيس وعواطف ؛ ومن ثَمَّ كان فهمُه للألفاظ فهمًا لدقائقها التي تظهر في الأداء العربي البليغ بما فيه من صور أخّاذة ، وظلال موحية تشيع اللذة في الشعور ، وتُثير الإعجاب في النفس .

هذا وقد ظهر فيما سبق أنّ الإمام عبد القاهر قمةٌ عالية لا تضاهى في الميدان التحليلي وذلك لبروزه منفردا دون أن يشاركه أحد في هذا الاتجاه ، إذ أبصرناه يأخذ المسائل فيتعمق فيها ، وينقّب عن العلل ، ويفتش عن الأسباب حتى رأيناه يتجاوز بالنحو ما شاع عنه حين قصره بعضُ دارسيه على الإعراب والبناء ، وبدأ يتنقل به إلى أفق آخر ، ويوجهّه إلى رسالته الأصيلة أنه مع الإعراب ، والبناء ، وضبط أواخر الكلمات علم يؤدي إلى المعرفة الصحيحة

التي شرحها الإمام ، وأفاض فيها في قضية النظم وتناول النص القرآني ليقف على دقائق النظم فيه ، وليصل من خلاله إلى التدليل على إعجاز القرآن ، كما أنه عرض كثيرا من الشواهد الشعرية في هذا السياق .

وبهذا يتخذ الإمامُ عبد القاهر من النحو وسائل للتصوير كالأصباغ التي تُعْمَل منها الصور ، والنقوش المستخدمة في تجميل الصورة وهو من خلال هذا يُبيِّن أنّ الصورة الاستعارية بوضعها في السياق تستطيع أن تتدفّق بالجمال وتتفَجر حين تتوثق صلاتها بما قبلها وبما بعدها ، وتكتسب دلالتها من علاقتها بالسابقات عليها واللاحقات بها وانصهارها معهن انصهارا يمنحها إشعاعات ، وإيحاءات ، وإضافات جديدةً ؛ ذلك أن المعنى في الصورة الاستعارية ينمو ، ويتلون ، ويتسع ، ويمتد ، ويتشعب ، ولا يقف عند المدلول الحرفي للكلمات ؛ لأن الاستعارة تكون معبّأة ومشحونة بشتى العواطف والانفعالات الذهنية والنفسية وكلما وسعنا السياق التي ترد فيه ازداد مع التأمل ثراؤها وعطاؤها ، حين تقع الموقع الصائب ، وتتفاعل مع غيرها من أدوات اللغة في توافق ، وتلاؤم ، وانسجام .

ومما جاء على هذا الحد وذكره الإمام عبد القاهر فيما ذكر قول الشاعر(١) .

اليَوْمُ يومان مُذْ غُيِّبْتَ عن بَصَرِي نفسِي فِداؤك ما ذنبي فأعتذرُ

أمْسِي وأصْبحُ لا ألْقاكَ واحَزَنَا لقد تأَنّقَ في مكروهي القدرُ

فالشاعر عاش تجربة مرة عَبّر عن هواه فيها بالدموع والألم ، وعاطفته الجياشة تتنزّى على لسانه حسرة ودموعا ووجعا ، وأحزانه تتوثب في صدره بعد أن هجرته حبيبته واختفت بعيدا عنه ، وهو في أشد الحاجة إلى الرفيق المؤنس ، لقد تركت حوله من الفراغ ما لا يمكن أن يملأه غيرها وهو صريع هواها هجرته في قسوة بالغة ، وغابت بعيدًا عنه ، حيث لا أمل في لقاء ،

---

(١) دلائل الإعجاز ص٥٢ .

ولا رجاء في شمل يجتمع وهو يبحث عن سبب لذلك فلا يجد ، فيتنفّسُ جَوَاه المكظوم ، وتثور لواعج الأحزان في صدره ، ويستشعر مرارة الألم في أعماقه ، وتتبدل الرؤى أمام ناظريه بَعْد أن سَفَى على حياته الكدر فلا الزهر نفّاح باسم، ولا النسيمُ أرِجٌ رَخِيٌّ ، ولا الجو مشرق بهيج فيطلقها دمعة حارة ، وأنّة وجيعة . لقد تحول كل شيء بالنسبة له وتغيّر ، فلا الليل هو الليل المعهود في دنيا الناس ، ولا النهار هو النهار ، ولا الزمن هو الزمن لقد تجمّد الزمن في حياته وتوقّف وبقي يعاني فيه غصص الوحدة ، وكأن هذا اليوم صنع من أجله هو ، إذ ليس كغيره من بقية الأيام فهو طويل طويل ، إنه يومان لا يوم واحد . وإنك لتدرك مدى ما يعانيه هذا المحب العاشق من هوًى عنيف ملحٍ ومدى ما يقاسيه من حيرة وقلق وعذاب إنه يتقلب على جمر الغضى بسبب هذا الهجر والنأى والبعد ولك أن تقف أمام قوله : (عن بصري) لتستشف من إيماضها ووحيها أن الحبيبة الغائبة إنما غابت عن بصره لم تتخطّاه إلى غيره ، أما جواه أما قلبه أما أعماقه أما فؤاده ، فهي هناك تشرق في نفسه ، وتورق في عوده وتسبح في روحه ولذا فهو يصرِّح في لهفة يتمنّى معها لو أنه يقدِّم حياته كلَّها فداءً لها (نفسي فداؤك) إنه يريد أن يعرف ذنبه وما جنته يداه ، إنه لم يكن يفكر إلا فيها ولا يهنأ ويسعد إلا حين يراها ، ولا يتصور وجوده وحياته بعيدا عنها وإنك لتبصر الكلماتِ ، وهي تتدفق بالحسرة ، وتفيض باللهفة واللوعة من خلال هذا المستَفْهِم الكئيب الحزين الذي يسأل عن ذنبه الذي لا يعرفه حتى يعتذر عنه (ما ذنبي فأعتذرُ ؟)

ثم تتضاعف حسرته ، وتشيع رِنَّةُ الأسى الممض في كلماته حين يصحو على الحقيقة الكاوية المرة وهي أنها هجرته ، وأصبحت نائية قد شطَّ بها المزار ، وأنه أصبح لا يراها لا في الإصباح ولا في الإمساء ، وأنه أمام كارثة روَّعت النفس ، وقوضت حصون الأمل ، فَيَزْفِرُ زفرةً حارة ، ويصيح صارخًا «واحزنا» ، ثم يمسك عن الكلام لحظة وكأنما يسحب من أعماق أعماقه نفسًا

طويلا ويخرجه أنينًا مرجَّعًا يندب معه سوء الحظ الذي يلازمه ولا يفارقه والذي لابد أن يكون الذي أصابه وحَلّ به نتيجة لمؤامرة خبيثة نسج خيوطها القدر ، وتفنّن في تدبيرها وأحكم تنفيذها .

من أجل هذا ازداد حسن استعارة «التأنق» للقدر حين استثمرت كل الخصائص الشعورية ، والتعبيرية ، والدلالات اللغوية التي توحَّدَت وتكثّفت لتبلغ قمة الانفعال الحاد ، والتطور العاطفي المركَّز ، لتصُبَّ في بؤرة الصورة الاستعارية[1].

* * *

(١) انظر في هذا الموضوع قضايا النقد الأدبي الحديث صـ ٣٦٨ للأستاذ الدكتور محمد زكي العشماوي .

الكشاف لمحمود بن عمر الزمخشري المتوفى ٥٢٨ هـ

الزمخشري يُعَدُّ واحدًا ممن احتشد للتفسير البياني للقرآن الكريم ، وقد انتفع انتفاعا أظهر من أن يخفى أثره بالإمام عبد القاهر إذ ظهر تأثير كتابيه (دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة) في الكشاف على نحو تراه في جُلِّ ما سطّر ودبّج ؛ إذ إن تناول الإمام عبد القاهر لقضية النظم ، وبَسطه لها ، وتحريره لماهيتها كانت حقلا خصبًا تفتّحت على يديه فيها أكمام المعاني وقد احتذاه صاحب الكشاف وتحرّاه ، وانتفع بكتابته انتفاعا لا يخفى على ناقد خبير ذلك أن المسائل البلاغية في الكشاف كانت معرضا لما جاء عند الإمام إذ كانا يلتقيان معًا في صدق النظرة ، وعمق الرؤية ، ووقدة الشعور ، وَتَسَعُّر الذكاء وحس باللغة التي بها يُدرك ما ينبغي أن يدرك وكأني بهما وهما يتدسَّسانِ في حروفها ، وألفاظها ، وتراكيبها فلا يزالان ينقّران ويفتّشان عن كل ما تبعث به من كريم المعاني حتى يصيباه ، ويقعا عليه .

هذا وهما وإن كانا يتفقان في أن كلاً منهما عالم إلا أن صاحب الكشاف ذو عقلية جدلية جعل الحوار سبيله إلى ذلك ومن ثمَّ فإن طريقته قائمة على طريقة أهل الجدل في محاوراتهم كأن يقول لمحاوره : فإن قُلْت كذا كان الجواب كذا وهذه الطريقة التي تميل بالحديث إلى قوانين الجدل ، وإن كانت تقنع العقل إلا أنها تدعو إلى الإيجاز في مواطن قد تتطلب الشرح والتبيين وإن كان قد يُسْهب في نُدْرة كما في تفسيره لفاتحة الكتاب ، وأوائل سورة البقرة وتُعدُّ دراستُه لمسائل البيان في القرآن الكريم دراسة تطبيقية ، ولكن تناوله للآيات التي توقف أمامها الإمام عبد القاهر وتعاطاها لم يصل فيها إلى المدى البعيد والمتطاول الذي حلّق في سمائه الإمام وصال وجال وأخذ وأعطى حين يقصد إلى النص الكريم فيضْفي بين يديه المقدمات ، ويأخذ في التحليل

والتعليل ، ويُفَصِّلُ المعاني تفصيلا، ويُسْبِغ القول إسْبَاغا حتى يصل إلى الغاية، ويحقق المرتجى والمأمول وهو مع هذا يورد الشاهد في إثر الشاهد ويمد بالمثال تلو المثال ، مع استرسال في التوجيه ، وسطوة في التعبير ووضوح في الإدراك ، وقوة في الفن ، وحركة في الذهن ؛ تلك الحركة التي جعلت منه غوّاصا ماهرا لا يقف عند السطح ، ولا يسبح قريبا من الشاطئ وإنما يغوص في الأعماق ، ويتغلغل في الأغوار باحثًا عن اللآلئ والجواهر والكنوز حتى يقع عليها ، ويقتنصها ، وساعتها يعطيها الصورة التي تلائمها بعد أن تكون قد تشعبت في ذهنه ، وتكاثرت في خاطره ، على نحو تقنع وتمتع وتذهل ، هذا ويوضح «الزمخشري» في جلاء سافر في مقدمة الكشاف أن على من يتصدّى لبيان حقائق التفسير أن يبرع ويبرّز في علمي المعاني والبيان وأن يجدّ في تحصيلهما ، والتّنقير عنهما ليقف على حقيقة الإعجاز في القرآن الكريم ولابد له من أن يأخذ من كل العلوم بطرف ، اسمعه وهو يقول :

«بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ جامعًا بين أمرين : تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويلَ المراجعات ... وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها ، مشتعل القريحة وقّادها ، يقظان النفس ، دَرَّاكا للّمْحة ، وإن لطُفَ شأنُها ، مُنتبهًا على الزَّمِرَةِ وإن خفي مكانهُا ، لاكَزًّا جَاسِيا ، ولا غليظًا جافيا متصرفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر ... قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ... إلخ»[1].

وهذا كلام يدل في غير عسر على طريقة صاحبه ، كما أنه يهديك إلى مذهبه في إعلاء قيمة البيان حتى ليتداخلك العجب من هذا التحوّط والتّشدّد الذي يفرضه فرضا على من يتعاطى التفسير ، وأنه لابد من أن يعتصر ذهنه ، ويكد عصبه ، وينفق جهده ، وأن يكثّر مراجعاته ومطالعاته حتى يكون خبيرا بأسرار اللغة ، بصيرًا بمواقع الألفاظ ، محيطا بمذاهب الكلام . وبذلك يتسع

(١) مقدمة الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ص٣.

مدى تفكيره ، وتنفسح أفق رؤيته ، وتنمو ملكته ، وينضر قوله ، ويجري على عرق من العربية الزاخرة بكنوز البلاغة في جميع ألوان المعاني على نحو يروق ويمتع .

والآن لنأخذ نماذج من بلاغة الكشاف وذلك في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ من فاتحة الكتاب إذ يبيّن أن تقديم المفعول وهو الضمير المنفصل « إيا » لقصد الاختصاص ومعنى ذلك نخصك وحدك بالعبادة كقوله تعالى : ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ ﴾ (الزمر:٦٤) وكقوله سبحانه ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا ﴾ (الأنعام:١٦٤) والمعنى نخصّك بالعبادة ونخصّك بطلب المعونة . والعبادة أقصى غايات الخضوع والتذلل ... فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب في قوله : « إياك » بدلا من « إياه » (قلت) هذا يسمى الالتفات في علم البيان قد يكون من الغيبة إلى الخطاب ومن الخطاب إلى الغيبة ومن الغيبة إلى التكلم كقوله تعالى : ﴿ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم ﴾ (يونس:٢٢) وقوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَـٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَـٰهُ ﴾ (فاطر:٩) .

وقد التفت امرؤ القيس ثلاث التفافات في ثلاثة أبيات حين قال[1] :

تطاولَ ليلُك بالأثمُدِ ... ونام الخليُّ ولم ترقُدِ
وباتَ وباتتْ له ليلةٌ ... كليلةِ ذي العائر الأرمَدِ
وذلك مِنْ نَبأ جاءني ... وَخَبّرتُه عن بني الأسود

وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه ، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع ، وإيقاظًا ، للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد ونمط معين ثابت . وقد تختص مواقعه بفوائد ، ومما اختُصّ به هذا أنه لما ذكر الحقيق بالحمد ، وأجرى عليه تلك

---

(١) امرؤ القيس الكندي الصحابي من قصيدة يرثى بها أباه ، الأثمد : اسم مكان .

الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل (إياك) يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه ، ليكون الخطاب أدلَّ على العبادة لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به (فإن قلت) لم قُرنت الاستعانة بالعبادة (قلت) ليجمع بين ما يتقرب به العباد إلى ربهم وبين ما يطلبونه ويحتاجون إليه من جهته (فإن قلت) فلم قدمت العبادة على الاستعانة (قلت) لأن تقديم الوسيلة قبل طلب الحاجة ليُستوجبوا الإجابة إليها (فإن قلت) لم أطلقت الاستعانة (قلت) ليتناول كل مستعان فيه ، والأحسن أن يراد الاستعانة به وبتوفيقه ويكون قوله «اهدنا» بيانا للمطلوب من المعونة كأنه قيل كيف أعينكم ؟ فقالوا : اهدنا الصراط المستقيم وإنما كان أحسن لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجزة بعض»[1].

ولقد حرَصْت على نقل هذا النص على الرغم من طوله لأبين منحى هذا البياني الكبير الذي أوسع هذا النص تحليلا وشرحا لبيان دقائقه البيانية على نحو رائق وشفاف متبعا طريقته التي أشرنا إليها من قبل والتي يسلك بها سبيل الحوار حين يتخيل محاوراً يحاوره ويمضي معه على نحو فإن قيل كذا قيل كذا وهو ما تراه ينادي على نفسه في جهارة ووضوح .

أعد قراءة كلامه مرة أخرى وتأمل هل ترى صاحبه قد ترك أو أهمل شيئا مما هو من صميم البحث البلاغي ومن دقائقه مما يهتم به أهل صنعة البيان قد تركه ولم يشر إليه .

إنّ الحديث يتشقق بين يديه على نحو تراه يوجه الاعتراض ثم يرد عليه أو السؤال ثم يكون الجواب عليه بما يقنع ويفيد . إنك تتابع تحليله فتراه وهو يتحدث عن تقديم المفعول الضمير المنفصل «إيا» في إياك نعبد وفي إياك

---

(١) الكشاف ١/٩ ، ١٠ .

نستعين ويُوَصِّلك إلى أن التقديم هنا يفيد التخصيص كما أنه يمضي ليبين سر تقديم العبادة على الاستعانة وهو تقديم بين شيئين لا ترتيب بينهما وبين العلة من وراء ذلك التقديم وذلك بأن العبادة وسيلة وطلب الاستعانة حاجة ويجب تقديم الوسيلة على الحاجة لتترتب الإجابة عليها .

فإذا نفّض يديه من التقديم انتقل لبيان الحديث عن الالتفات الذي وردت صورة من صوره في فاتحة الكتاب وهو التفات من الغيبة إلى الخطاب « إياك » بدلا من « إياه» وفي الآية الثانية : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم ﴾ من الخطاب « بكم إلى الغيبة (بهم) وفي الآية الثالثة ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ ﴾ من الغيبة (فساقه) إلى التكلم (فسقناه) وفي أبيات امرئ القيس أشار إلى التفاتاته ففي البيت الأول : التفات من التكلم إلى الخطاب عند غير الجمهور في « ليلك» بدلا من « ليلى» والثاني في قوله : وبات الخلي ولم ترقد والالتفات فيه من الخطاب في البيت الأول (تطاول ليلك) إلى الغيبة في البيت الثاني (وبات) والمفروض «بت» وفي البيت الثالث التفات في قوله « جاءني» من الغيبة « جاءه» إلى التكلم « جاءني» .

هذا وقد أفصح الزمخشري عن القيمة البلاغية للالتفات فأبان عن سرٍّ عام هو إيقاظ السامع ، وتجديد نشاطه ، وتنبيهه حتى يصغى وهو يتلقى ويستمع وذلك بالتنويع في نمط العبارة .

أما السّرّ وراء الالتفات في فاتحة الكتاب فلبيان أن ما ذكر من استحقاق الله للحمد ، بحيث لا يشاركه في هذا الحمد غيره ، وما أجرى عليه من نعوت الكمال العظيمة استتبع تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن ، رفيع الدرجات ، حقيق وحده بالثناء به لا بأحد سواه في جميع المهمات ولذا خوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقيل : (إياك) يا من هذه صفاته نخص بالعبادة

والاستعانة لا نعبد غيرك ولا نستعينه ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به [1] .

كما أن الزمخشري ألمح إلى التلاؤم في الكلام حين صرّح بقوله : والأحسن أن تراد الاستعانة به وبتوفيقه على أداء العبادة ويكون قوله سبحانه : (اهدنا) بيانا للمطلوب من المعونة وإنما كان هذا أحسن لتلاؤم الكلام وأخذ بعضه بحجزة[2] بعض في سلاسة وانسجام ومتانة وحبك بعيدا عن النبوّ ، والقلق ، والتنافر وفي قوله تعالى : ﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ (البقرة:٤٠) فلا تنقضوا عهدي وهو من قولك زيدا رهبته وهو أوكد في الاختصاص من قوله سبحانه : (إياك نعبد) [3] ولعل اقتران الفعل بالفاء ومجيئه على صورة الأمر هو الذي أعطاه تلك المزيّة . إن جملة الطلب في قوله سبحانه : (فارهبون) بما تضمّنته من الإشعار بمعنى الرهبة والخوف كل ذلك جعل الأسلوب أوكد منه هنا عنه في قوله سبحانه : (إياك نعبد) على حد ما ذهب إليه صاحب الكشاف ، وما قيل في قوله سبحانه ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾ (البقرة:٤٠) يقال أيضًا في : ﴿ وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ (البقرة:٤١) في قوله سبحانه : ﴿ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ﴾ (البقرة:٤١) وإن كان لم يتعرض لبيان ما فيها من اختصاص ، وإنما تحدث عن الاستعارة في كلمة «تشتروا» وبيّن أن حقيقتها «تستبدلوا» فهو قد استعار الاشتراء للاستبدال كقوله تعالى : ﴿ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ ﴾ (البقرة:١٦) والمراد : ولا تستبدلوا بآياتي ثمنا والثمن هو المشترى به من الرياسة والزعامة .. إلخ وواضح أن الاستعارة هنا تبعية في الفعل .

---

(١) أي متناظم متّسق .

(٢) الكشاف ١/١٠ .

(٣) المصدر السابق ١/٦٧ .

ويقف الإمام أمام قوله تعالى حكاية عما قالته امرأة عمران وكانت قد نذرت ما في بطنها محرّرا وخالصًا لخدمة بيت المقدس : ﴿ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ (آل عمران:٣٦).

وحين تطالع (فلما وضعتها) تجدها إشارة إلى معهود معلوم من قبل الوضع وذلك ما كان في علم الله وتقديره ولذا أنث الضمير في قوله : (بطنها) بالنظر إلى المعنى لأنّ ما في بطنها كان أنثى أو على تأويل الحبَلة أو النفس أو النسمة وإنما انتصب قوله «أنثى» على اعتبار كونها حالاً مؤكدة من الضمير في (وضعتها) إذ هي كقولك : وضعت الأنثى أنثى لأن الحال وذا الحال لشيء واحد . وأما على تأويل الحبَلة أو النّسَمة أو النفس فكأنه قيل وضعت الحبلة أو النسمة أنثى والحال عندئذ مبينة وعلى طريقة الزمخشري في الحوار قال : «فإن قلت» فلم قالت : «إني وضعتها أنثى ؟» (قلت) قالته تحسرا على ما رأت من خيبة أملها ، وعكس تقديرها وحزنها لأنها كانت ترجو أن تلد ذكرا ولذا نذرته محرّرًا للسَّدَانة ولتحسرها قال الله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ﴾ تعظيما لموضوعها ... وبيانا لقدر الموهوب وما علم الله من عظم شأنه ، وعلو قدره ، وفي قوله : ﴿ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ﴾ أي وليس الذكر الذي طلبت كالأنثى التي وهبت لها واللام فيها للعهد[1].

فكأنّ التشبيه ليس قائمًا على مطلق المفاضلة بين الذكر والأنثى ولكنه قائم على المفاضلة بين الذكر الذي ترجوه أم مريم امرأة عمران والأنثى التي وضعتها ؛ ذلك أن الأنثى التي وضعتها سوف تختص بأمر عظيم إذ إنها ستلد مولودا من غير أب هو سيدنا عيسى ـ عليه السلام ـ واللام في الذكر والأنثى للعهد كما سبق أما التي في الأنثى فلسبق ذكرها صريحا حكاية ﴿ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾ وأما التي في الذكر فلقولها : ﴿ إِنِّي نَذَرْتُ ﴾ إلخ ، إذ هو الذي طلبته والتحرير لا يكون إلا للذكر .

---

(١) الكشاف ١/١٨٦ .

وفي قوله تعالى : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾ (فاطر:٩) قال الزمخشري (فإن قلت) لم جاء (فتثير) على المضارعة دون ما قبله وما بعده ؟ (قلت) ليحكي الحال التي تقع فيها إثارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصورة البديعة الدالة على القدرة الربانية ، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تميز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك كما قال تأبط شرا .

بَأَنِّي قَدْ لَقِيتُ الغُولَ تَهْوِي بِسَهْبٍ كالصَّحِيفَةِ صَحْصَحَانِ[1]

فأضْرِبُها بلا دَهَشٍ فَخَرَّتْ صَرِيعًا لليدين وللجِرَانِ

لأنه قصد أن يُصوِّر لقومه الحال التي تشجع فيها بزعمه على ضرب الغول كأنه يبصرهم إياها ويطلعهم على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول وثباته عند كل شدة ، وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت وإحياء الأرض بالمطر بعد موته لمّا كانا من الدلائل على القدرة الباهرة قيل فسقنا وأحيينا معدولا بهما عن لفظ الغيبة إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه[2] .

وأنت حين تراجع كلام صاحب الكشاف هنا تراه أبان في جلاء ووضوح كيف وقع المضارع موقع الماضي لعلة بلاغية هي استحضار الصورة البديعة وفي بيت : تأبط شرا إذ قال : «فأضربها» ليبين لقومه جرأته ، والحالة التي تشجّع فيها على ضرب الغول كأنه يبصّرهم إياها ويطلب منهم مشاهدتها ليثبت لهم بالدليل المرئي شجاعته التي تتجاوز وتتخطّى المخاطر والأهوال وكيف تتقدم في أوقات المخاوف والشدائد فتتهاوى أمام ضرباتها القاتلة سطوات كل جبار ويُسَوِّي بها أخدع كل متجبر ظلوم .

(١) سهب ـ الفلاة ـ صحصحان مستوية .

(٢) الكشاف ٢٦٩/٤ ، ٢٧٠ ، الطبعة الأولى ، المكتبة التجارية ١٣٥٤هـ .

وبمثل ما تحدث عن وقوع المضارع مكان الماضي تحدث عن العكس ، وشرح العلة وبيّن السبب ، وذلك حين توقّف أمام قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴾ (الحج:٦٣).

يقول الزمخشري : «قرئ «مخضرة» أي ذات خضر على مُفْعَلّة كمُبْقَلّه (فإن قلت) هلا قيل فأصبحت ولم صرف إلى لفظ المضارع (قلت) لنكتة فيه وهي إفادة بقاء أثر المطر زمانا بعد زمان كما تقول : أنعم عَليَّ فلان عام كذا فأغدو وأروح شاكرا له ولو قلت فرحت وغدوت لم يقع ذلك الموقع[1]

وهو كلام يفسده التعليق عليه ؛ لأنه من الوضوح بحيث لا تغيب رؤيته عن بصير وفي قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ﴾ (الأنعام:٣٨) ويقف أمامها الزمخشري ويلفت نظره قوله تعالى : ﴿ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ فيوضح أن أرزاقها وآجالها وأعمالها مكتوبة كما كتبت أرزاقكم ، وآجالكم ، وأعمالكم ﴿ مَّا فَرَّطْنَا ﴾ ما تركنا وما أغفلنا ﴿ فِي الْكِتَابِ ﴾ اللوح المحفوظ ﴿ مِن شَيْءٍ ﴾ من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما وجب أن يثبت مما يختص به ﴿ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ من الأمم كلها وينصف بعضها من بعض (فإن قلت) إلا أمم مع إفراد الدابة والطائر (قلت) لما كان قوله تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ ﴾ دالاً على معنى الاستغراق ومغنيا عن أن يقال : وما من دواب ولا طير حمل قوله على المعنى «فإن قلت» هلا قيل وما من دابة ولا طائر إلا أمم أمثالكم وما معنى زيادة قوله : في الأرض ويطير بجناحيه ؟ (قلت) معنى ذلك زيادة التعميم والإحاطة كأنه قيل وما من دابة قط في جميع الأرضين السبع وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير إلا أمم أمثالكم

---

(١) الكشاف ٣٨/٣ .

محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها (فإن قلت فما الغرض في ذكر ذلك) ؟ (قلت) الدلالة على عظم قدرته ... وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس ... لا يشغله شأن عن شأن»[1].

وهكذا ترى هذا البياني الكبير يتناول النص من جميع نواحيه ، ويزن كل شيء فيه بميزان دقيق ، وهو هنا يبين أن النكرة في سياق النفي تَعُم وبيّن سّر النص على قوله سبحانه ﴿ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ مع أن الدابة لا تدب إلا على الأرض والسر في زيادة ﴿ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ مع أن الطيران لا يكون إلا بهما وأنه بذلك أكد التعميم والإحاطة فالرجل علم من أعلام العربية الفاهمين لأسرارها ، ولدقائق غوامضها وخفاياها والمتمكن من تلوّن أساليبها وتنوعها وذلك لتدسُّسِه في باطن مجاهلها تدسّسًا ولدوام إجالته في حرّ بيانها إجالة يستشف ما بها من فكر وعطاء ورموز .

لذلك فلنأخذ مثالا نرى من خلاله رؤيته للمفردة القرآنية ففي قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

(الحج: ١، ٢).

وتستوقفه كلمة (مرضعة) لماذا عبر بها ولم يعبر (بمرضع) ؟ إن المرضع هي التي من شأنها أن ترضع فهي التي يجري اللبن في ثدييها وإن لم تباشر الإرضاع بالفعل أما المرضعة فهي التي ألقمت الرضيع ثديها بالفعل . إن الرضيع يباشر الإرضاع بالفعل ، ويقوم به ، فإذا نزعته من فمه لما يلحقها من الفزع ، ولما يصيبها من الدهشة ، ولما يحيط بها من الهول والرعب فإن معنى ذلك أن رجفة الزلزال جعل الموقف شديد الصعوبة ، وأنه فوق كل احتمال

(١) الكشاف ٢/١٢ ، ١٣ .

وطاقة حتى دفعها دفعًا قويا إلى نزع ثديها من فم طفلها وقد ألقمته إياه مع شدة الحرص على إرضاعه ، والحفاظ عليه ، وهكذا ترى الزمخشري كيف صوّر هولَ الموقف من خلال الموازنة بين «مرضع» ، ومرضعة ، وكيف وضعت (مرضعة) في مكانها الصحيح التي تكون فيه أداة الجمال ، والذي لا يزاحمها فيه غيرها إذ إنها تمثل الموقف أبلغ تمثيل ، وتصور ما فيه من الخوف ، والرعب ، والفزع فتبلغ الغاية من دقة التصوير .

واسمع إلى هذا الأداء من فم الزمخشري « (فإن قلت) لم قيل (مرضعة) دون مرضع (المرضعة) هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها الصبي . والمرضع التي شأنها أن ترضع وإن لم تباشر الإرضاع في حال وصفها به فقيل مرضعة ليدل على أن ذلك الهول إذا فوجئت به هذه وقد ألقمت الرضيع ثديها نزعته عن فيه لما يلحقها من الدهشة»[1].

فإذا ذهبنا إلى قوله تعالى حكاية لدعاء سيدنا زكريا عليه السلام : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ (مريم:٤) وأمام قوله سبحانه : ﴿ وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ تجد أبلغ الدلالة في الإبانة عن الضعف ، وذهاب القوة وسلك في التعبير عن ذلك طريقا دقيقا حين بيّن في وضوح أن إسناد الوهن إلى العظم لأنه عماد البدن ، ودعام الجسد ، وعموده فإذا تهالك وتداعى وضعف تراخى ما وراءه وتساقطت قوته ، وانهد كيانه ، فهو أشد الأجزاء صلابة ، ومتانة وتماسكا وأقلها تأثرا من العلل فإذا ضرب وأصابه الوهن وتملكه الضعف كان ما وراءه أوهن وأضعف ذلك أن العظم حين يهن يكون الجسد كله قد وهن وضعف فالعظم هو أصلب ما فيه وهو قوامه الذي يقوم به ويتجمّع عليه .

---

(١) الكشاف ٣/ ٢٤ .

وهكذا ترى (الكناية) عن الضعف الشديد تطل عليك من خلال هذا التعبير وهي أبلغ من التصريح وإنما عبر (بالعظم) مفردا لأنه قصد إلى الجنس كله الذي يدل على معنى الجنْسِيّة وقصده أن هذا الجنس الذي هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن ، انظر إلى صاحب الكشاف يُجَلّى هذه الحقيقة على نحو جليٍّ وسافر فيقول : « قرئ وهَنَ بالحركات الثلاث وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن وبه قوامه وهو أصل بنائه فإذا وهن تداعى وتساقطت قوته ولأنه أشد ما فيه وأصلبه فإذا وهن كان ما وراءه أوهن ووحَّدَه لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية وقصده إلى أن هذا الجنس هو العمود والقوام وأشد ما تركب منه الجسد قد أصابه الوهن ولو جمع لكان قصدا إلى معنًى آخر وهو أنه لم يهن بعض عظامه ولكن كلها »[1] .

ويسلط الشهاب الخفاجي على البيضاوي مزيدًا من الضوء والكشف والتفسير لما ذهب إليه صاحب الكشاف حين يوضح أنّ الإفراد للعظم الذي يبنى عليه الجسد ويصح ويقوم إنما يراد أن هذا الجنس قد أصابه الوهن على أنه لو جمع (العظم) وقال : (العظام) لكان القصد إلى معنى آخر ، وهو أنه لم يهن بعض عظامه ولكن كلها حتى لكأنه شُكّ في الشمول والإحاطة لأن القيد ناظر إلى ما يقابله وهذا غير مناسب للمقام ؛ لأن هذا الكلام صريح في أن « وهنت » يفيد شمول الوهن لكل من العظام فردا فردا بحيث لا يخرج منها لابعض[2] .

ومن خلال هذه المناقشة الفكرية التي عرضت للموازنة بين ما جاء في النص القرآني ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي ﴾ وبين ما لو قيل - في غير التعبير القرآني - (وهنت العظام) يزيد التأكيد على أن الإفراد في لفظ القرآن « العظم » يوثق بالإقناع البليغ الحاسم أنه هو المناسب والمطلوب قصدا إلى الجنس

(١) الكشاف ٢/٤٠٥ .

(٢) الشهاب الخفاجي على البيضاوي ٦/١٣٦ ، دار صادر - بيروت .

المنبئ عن شمول الوهن لكل فرد من أفراد هذا العظم ، والذي لا يترك واحدا منه من غير أن يتسلل إليه أما لو جمع فقال : «العظام» لكان القصد إلى شيء آخر أن الذي وهن ليس بعض العظام بل كلها إذ إن التعبير على هذا النحو سيضعك أمام موقف يتمثل في أن سامعًا شك في الشمول والإحاطة فعبر بالجمع ، لأن القيد ناظر إلى الذي يقابله وذلك غير مناسب للمقام لأن هذا الكلام صريح في أن «وهنت» يفيد شمول الوهن لكل من العظام فردا فردا بحيث لا يخرج منها البعض ولا يترك .

ولذا نرى الزمخشري يحتشد بكل قوة ، ويفصل القول في الفرق بين دخول لام الجنس على المفرد ودخولها على الجمع في قوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ﴾ (البقرة:٢٥) ويبين أن «الصالحات كل ما استقام من الأعمال بدليل العقل والكتاب والسنة ، واللام للجنس (فإن قلت) أي فرق بين لام الجنس داخلة على المفرد ، وبينها داخلة على المجموع (قلت) إذا دخلت على المفرد كان صالحا لأن يراد به الجنس إلى أن يحاط به ، وأن يراد به بعضه إلى الواحد منه ، وإذا دخلت على المجموع صلح أن يراد به جميع الجنس وأن يراد به بعضُه لا إلى الواحد منه لأن وزانه في تناول الجمعية في الجنس وزان المفرد في تناول الجنسية والجمعية في جمل الجنس لا في وحدانه (فإن قلت) فما المراد بهذا المجموع مع اللام (قلتُ) الجملة من الأعمال الصالحة المستقيمة في الدين على حسب حال المؤمن في مواجب التكليف»[1].

وحول استغراق المفرد واستغراق الجمْع نقرأ للزمخشري وهو يقدم تفسيرا لقول الله تعالى : ﴿ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٨٥) «وقرأ ابن عباس (وكتابه) يريد القرآن أو الجنس وعنه (الكتاب) أكثر من

---

(١) الكشاف ١/٥١ .

الكتب (فإن قلت) كيف يكون الواحد أكثر من الجمع (قلت) لأنه إذا أريد بالواحد الجنس والجنسيّة قائمة في وحدان الجنس كلها لم يخرج منه شيء أما الجمع فلا يدخل تحته إلا ما فيه الجنسية من الجموع»[1].

ويوثق هذا ما ذكره الشهاب الخفاجي على البيضاوي حين يقول : «إن استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع لأن المفرد يتناول جميع الآحاد ابتداءً فلا يخرج عنه شيء منه قليلا أو كثيرا بخلاف الجمع فإنه يستغرق الجموع أولا وبالذات ثم يسري إلى الآحاد والفرق بينهما في النفي ظاهر وفي الإثبات كونه أظهر وأقوى خصوصًا وقد شمل الحقيقة والماهية»[2].

وهذا الذي طالعتَه هنا نقله صاحب روح المعاني حين قال : «وقرأ ابن عباس (وكتابه) بالإفراد فيحتمل أن يراد به القرآن بحمل الإضافة على العهد أو أن يُراد الجنس ، فلا يختص به والفرق بينه وبين الجمع على ما ذهب إليه إمام الحرمين والزمخشري أن استغراق المفرد أشمل من استغراق الجمع ؛ لأن المفرد يتناول جميع الآحاد ابتداءً فلا يخرج عنه شيء قليلا أو كثيرا بخلاف الجمع فإنه يستغرق الجموع أولا وبالذات ثم يسري إلى الآحاد»[3].

هذا وكون استغراق المفرد أشمل مما ظهر ووضح أن اسم الجنس المفرد إذا دخلت عليه أداة الاستغراق مثل حرف التعريف أو السلب كان شموله للأفراد أكثر من شمول الجمع أو ما دونه كالمثنى الداخل عليهما تلك الأداة إذ إن المفرد يتناول كل واحد من الأفراد ، والجمع إنما يشمل كل جماعة جماعة ولا ينافيه خروج الواحد والاثنين ودليل ذلك صحة لا رجال في الدار إذا كان فيها رجل أو رجلان [4].

---

(١) الكشاف ١/١٧٢ .

(٢) الشهاب الخفاجي على البيضاوي ٢/٤٥٣ .

(٣) روح المعاني للألوسي ٣/٦٨ .

(٤) التلخيص في علوم البلاغة صـ ٦٦ شرح البرقوقي .

وإنما جرنا الحديث إلى هذا لنكشف عن رؤية صاحب الكشاف في الفرق بين دخول لام الجنس على المفرد ، ودخولها على الجمع ذلك أن الزمخشري الذي أطال العكوف على كتاب الله دراسة وتأمّلا مع استمرار الإجالة ، ودوام النظر قد وصل في براعة ، وهُدِيَ في اقتدار إلى دقائق وأسرار تقطع بأنه رأسٌ بارز وعلم نابه من أعلام العربية الكبار قد تغلغل في سرائرها فمنحته أسْرَارَها الذي أخذ يُجلِّيها ويكشف عن الخبيء الذي يجب أن يفتّش عليه ويُطلَب . إنه لاحظ ما بين كلمات القرآن من تماسك وتلاؤم وتساند حين تضُمُّها تراكيبه البارعة المعجزة فأبرز هذا وجلاّه مما يؤكد على حسه الرهيف ، وتذوقه الرائق الصافي الذي يملأ شغاف القلب بالإعجاب والسّحْر .

إنّ الزمخشريَّ الذي كان أول من بيّن أن المفسّر لكتاب الله ـ عز وجل ـ لابد أن يبرّز ويتفوق في علمي المعاني والبيان وبذلك يكون أول من نص على هذين العلمين صراحة في تفسيره للنص القرآني على أساس أنه قد وصل إلى حدّ الإعجاز في بلاغته قد وفق في إيضاح المسائل البلاغية حين كان يتناول ويتعاطى النص المعجز من جميع جهاته إذ يطيل الوقفة أمام كل ما يراه في حاجة إلى النظر في الجملة القرآنية والجملة في الآية ومناسبة الآية لما بعدها ، واتساقها مع السياق على نحو تتجلى فيه عبقرية من يتملك زمام اللغة ، وقد خلصت له خلوصا يعرف لكل دقيقة من دقائقها وزنها ومكانتها فلا يعزب عنه منها شيء .

إن أكثر مَا هُدِي إليه الرجل غال وثمين ومن ثَمَّ فإنه يُعَدّ على رأس من طبق في تفسيره القواعد البلاغية على القرآن الكريم .

غير أننا نحب أن ننبه إلى أننا سنعرض للموازنة بين صنيع الإمام عبد القاهر الذي تفتحت على يديه أكمام البيان وهو يعرض قضية النظم وبين صاحب الكشاف الذي احتذاه ، ومضى على طريقه ، وتابعه في كثير مما ذهب إليه .

إذ إنّ المتأمل يجد أن صاحب الأسرار والدلائل قد عبّد الطريق ، ووضّح المسالك وأعدّ الخطة ، وأمَدّ بالمثال وصاحب الكشاف لاكتمال عُدَّتِهِ ، وغزارة مادته وحركة ذهنه قد احتذاه وانتفع به حين سار في الطريق نفسه وترسَّم مواضع قلم وقدم الإمام في النظم القرآني وحتى لا نطلق القول على عواهنه ، ولا نسوق الحجة من غير دليل نعرض لآية ذائعة عرضها الإمام وهو يعالج قضية النظم وفسّرها صاحب الكشاف فماذا قال كل منهما فيها ؟

قال تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود:٤٤).

وهذه الآية دارت في كتب البلاغيين على نحو لم تدر آية على هذا النحو بمثل ما دارت مع أن كل كلام الله معجز ومُتَحَدّى به ولنستمع إلى الإمام عبد القاهر ماذا يقول في شأنها : «وهل تشُكّ إذا فكرت في قوله تعالى : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّ وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ فتجلّى لك مِنْها الإعجاز ، وبهرك الذي ترى وتسمع أنك لم تجد ما وجدت من المزية الظاهرة ، والفضيلة القاهرة إلا لأمر يرجع إلى ارتباط هذه الكلم بعضها ببعض وأن لم يعرض لها الحسن والشرف إلا من حيث لاقت الأولى بالثانية ، والثالثة بالرابعة وهكذا إلى أن تَسْتَقِرّيهَا إلى آخرها ، وأن الفضل تناتَجَ ما بينها ، وحصل من مجموعها .

إن شككت فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها ، وأُفرِدَتْ لأدَتْ من الفصاحة ما تؤديه وهي في مكانها من الآية ؟ قل «ابلعي» واعتبرها وحدها من غير أن تنظر إلى ما قبلها وإلى ما بعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها .

وكيف بالشك في ذلك ، ومعلوم أن مبدأ العظمة في أن نوديت الأرض ثم أمرت ثم في أن كان النداء بـ(يا) دون (أي) نحو (يا أيتها الأرض) ثم إضافة «الماء» «إلى «الكاف» دون أن يقال (ابلعي الماء) ثم أن أتبع نداء الأرض

وأمرها بما هو من شأنها نداء السماء وأمرها كذلك بما يخُصُّها . ثم أن قيل (وغِيض الماء) فجاء الفعل على (فُعِلَ) الدالة على أنه لم يغض إلا بأمر آمر ، وقدرة قادر ثم تأكيد ذلك وتقريره بقوله تعالى : (وقضي الأمر) ثم ذكر ما هو فائدة هذه الأمور وهو (استوت على الجودي) ثم إضمار السفينة قبل الذكر كما هو شأن الفخامة والدلالة على عظم الشأن ثم مقابلة (قيل) في الخاتمة (بقيل) في الفاتحة أفترى لهذه الخصائص التي تملؤك بالإعجاز روعة ، وتُحْضِرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقْصَاها تعَلّقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع ، وحروف تتوالى في النطق؟ أم كل ذلك لما بين معاني الألفاظ من الاتسَاق العجيب» ؟[1] .

إنّ عبدَ القاهر يقرر في وضوح أن مفردات اللغة لا يمكن أن يقوم وجه لتقييمها في ذاتها وإن كانت كل مفردة لها في ذاتها دلالة موضوعة لها لأنها وضعت لتدل على ذات أو معنى دون أي اعتبار آخر ومن ثَمَّ فإن دلالتها لا تتعدد أو تختلف لكنها حين تجتمع مع غيرها وتنظم مع سواها حينئذ ينبثق منها من المعاني وينكشف ما لا يمكن أن يكون لها وهي منفردة .

فالفضل والحُسْن تَنَاتج من ارتباط الكلمات بعضها ببعض حين ارتبطت الأولى بالثانية والثالثة بالرابعة فالحُسْن هو مَجْمُوع هذا التلاقي والارتباط على هذا النحو ولو أنك عمدت إلى مفردة من المفردات وأخذتها من بين أخواتها وجاراتها لتضاءل الحسن ، وغابت الفصاحة ، وجفت ولذا فإن الإمام حين يضع أمامنا هذه الآية فإنه يبرز الخصائص التي شاعت في نظمها من خلال استخدام اللغة فيها وترتيبها على نحو معيّن على حدٍّ ما بينه هو في النص الذي نقلناه عنه ، والذي طوّف فيه بنا في آفاق عالية ، وأخذنا إلى رياض فيحاء تأنقت فيها يد الطبيعة على نحو يَسْحَرُ اللّب ، ويَمْلِكُ الطَّرْف وأرانا من خلال هذا

(١) دلائل الإعجاز صـ ٣٢ المنار .

التطواف والتجوال كيف ندرك بأذواقنا سر العظمة في الآية الكريمة ، وكيف تنهض معاني النحو بالعون والمساعدة على ذلك وحدّد الإمام عبد القاهر سرّ العظمة في الآية في أمور ذكرها في قوله : ومعلوم أن مبدأ العظمة : أولاً : في نداء الأرض وأمرها .

ثانيًا : ثم أن كان النداء بـ (يا) دون (أي) .

ثالثًا : إضافة الماء إلى الكاف (ابلعي ماءك) دون أن يقول : ابلعي الماء .

رابعًا : نداء الأرض بما يخصها وكذلك أمرها ثم نداء السماء بما هو من شأنها مع أمرها كذلك .

خامسًا : استخدام المبني للمجهول في (قيل) (وغيض) فدل على أنه لا يغيض إلا بأمر آمر ولو أنه عبر بالمعلوم فقال : غاض الماء لم يدل على ذلك .

سادسًا : التأكيد والتقرير (وقضى الأمر) .

سابعًا : إضمار السفينة دون ذكرها في قوله (استوت على الجودي) مع ما في هذا الإضمار من عظمة وفخامة ، وبيان لنهاية الرحلة .

ثامنًا : مقابلة (قيل) في الفاتحة بـ (قيل) في الخاتمة .

عُدْ إلى الآية واقرأها في صحبة تلك الإشارات التي أشار إليها عبد القاهر ولاشك أنك ستملأ يديك من ثمار تلك التوجيهات بكل خير ينثال عليك من كل مقطع من مقاطعها إنك تنعم النظر فيها وتطيله فتجدها خصائص أسلوبية . ليست كما تبدو مجرد قواعد نحوية جامدة ، ولكنها معان ، وأحاسيس ودفقات مشاعر ﴿ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ ﴾ في أي سياق جاءت هذه الآية ، وما الموقف الذي صدرت عنه وقيلت فيه ؟ إنك حين تقف وقفة متأمل بين يديها سوف تملأ يديك من موفور جناها ، ومن طيب عطائها وحلو ثمرها الآية تتحدث عن نهاية موقف عصيب حين انهمرت السماء بأمطارها وتفجرت عيون الأرض بمياهها والتقى ماء السماء بماء الأرض على أمر قَدْ قَدَّره الرحمن وقضاه

ساعتها ترى الماء يُضَيِّع كل شيء يُغيِّبُ الدور ، ويبتلع الشجر يجرف السدود ، ويتخطّى الحواجز ، ويتعدّى الحدود ، ويغطي قنن [1] الجبال حتى لم يبق ظاهر لم يغطّه ، ولم يجرفه في طريقه واكتسح قوى الشر والبغي من العصاة الكافرين لتنجو الجماعة المؤمنة ، ولتستقر سفينة نوح ومن آمن معه على شاطئ النجاة وبر الأمان والسلامة بعد إهلاك الظالمين بالغرق والقضاء عليهم ، وتطهير الأرض من شرهم وبغيهم وبعد أن نجا نوح عليه السلام ومن آمن معه وبعد أن تمت عملية التخلص من الكفار وتحقق الهدف الذي من أجله كان الطوفان كان لابُدَّ أنْ يعُود كل شيء إلى ما قد كان عليه قبل الطوفان وأن يتم هذا في حسم وسرعة ومن أجل هذا كله كان نداء الله للأرض ثم أمرها ثم نداؤه للسماء وأمرها وكان النداء بـ (يا) ولم يكن بـ (أي) فلم يقل لها(يا أيتها الأرض) لأن في هذه الصيغة احتشادًا أو احتفالا ليس في (يا أرض) وحسبها أن يقول لها الحق يا أرض هكذا بالتنكير الدال على أنها في ملكوت ذي الملكوت نكرة تاهتة كقطرة في يم ، وكذلك ليس الإعجاز في الأمر .... وإنما الإعجاز هو نفوذ الأمر في المأمور) [2] .

ولكن هل يملك المأمور وهو المخلوق الضعيف إلا أن ينصاع لأمر الخالق القوي وأن ينفذ في طواعية وأن يستجيب إذ لا يملك غير الإذعان والطاعة ؟

إن طبيعة النداء (بياء) في قوله سبحانه :«يا نوح» في هذا النداء وفي التصريح باسمه عزاء جميل ، ومواساة طيبة من رب كريم ، ففي ندائه باسمه نداء من الخليل لخليله «يا نوح» وفي قوله : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ﴾ مع التأكيد على هذا إشارة موثقة على أن ابن نوح ليس من أهله الذين ينسبون إليه ولاء وطاعة

---

(١) (القُنَّة) قُنَّة كل شيء أعلاه (ج) قنن ، وقنان لسان العرب مادة (قنن) .

(٢) مدخل إلى كتابي عبد القاهر الجرجاني ص٢٤٣ ، الأستاذ الدكتور محمد أبو موسى ، الطبعة الأولى .

فأهله إنما هم المؤمنون ولهذا بين السبب الذي كان من أجله ليس من أهله : ﴿ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ﴾ فهو ليس من الأعمال التي يتقبلها الله حتى ولو كان ابن نبي وإنما سمي الابن عملا لأنه غرس من غرس الأب .

وفي قوله : ﴿ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (هود:٤٦) والمراد بالعلم هنا العلم الذي لا يقع في متناول العقل البشري لأنه علم قد استأثر به الله سبحانه وحده ، فالنهي الواقع على السؤال عما لا يعلم نوح هو نهي واقع على النّهْي على العلم الإلهي وهو علم واسع فضفاض لا يتسع له عقل نوح ولا غيره ومن ثَمَّ استرجع نوح عليه السلام وطلب من ربه المغفرة والرحمة لسؤاله ما ليس به علم فقبل الله منه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ أُمَمٍ مِّمَّن مَّعَكَ ۚ وَأُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (هود:٤٧،٤٨) .

قلنا في حديثنا عن صاحب الكشاف إنه قد رزق إمكانات عبد القاهر في لطيف الاشتفاف وفي صدق النظرة ، وبراعة الحس لكن توجّهه في التفسير البياني إنما كان بوحي من الإمام عبد القاهر ومن ترسمه لخطاه واحتذائه له احتذاء كاملاً وهو أول من سمّى مباحث النظم (بعلم المعاني) كما أنه نص صراحة في مقدمة تفسيره على أن علمي البيان والمعاني هما من ألزم اللوازم لمن يتعرض لتفسير كتاب الله كما سبق وقلنا من قبل إن من يقف على المسائل البلاغية في الكشاف لا يخفى عليه تأثير عبد القاهر في جلها وإنْ كان الزمخشريُّ قد وهب إمكانات عبد القاهر في صدق النظرة ، وبعد الرؤية إلا أن الإمام عبد القاهر قد رزق موهبة في التعبير ، واسترسالاً في التوجيه ، واطرادا في النّسق ، وصفاء في الذوق ، وحركة في الذهن فهو حين يتعرض للآية الكريمة يَبْسُطُها بسْطًا متماسكا واضحا في نفَسٍ أدبي طويل إلى أبعد حدٍّ وأقصاه كما رأينا في آية هود ، التي جرى الحديث عنها هنا .

أما صاحب الكشاف فيجعل الحوار سبيله في التوضيح فهو يقول : إن قلت كذا فالجواب يكون كذا وإذا كنا قد عرضنا لآية هود : ﴿ وَقِيلَ يَٰٓأَرْضُ ٱبْلَعِى مَآءَكِ ﴾ عند الإمام عبد القاهر فإننا نعرض هذه الآية نفسها عند الزمخشري لنوازن بين الطريقتين في التناول لآية من كتاب الله .

يقول صاحبُ الكشاف : «نداء الأرض والسماء بما ينادى به الحيوان المميّز على لفظ التخصيص والإقبال عليهما بالخطاب من بين سائر المخلوقات وهو قوله : «يا أرض» «ويا سماء» ، ثم أمرهما بما يؤمر به أهل التمييز والعقل من قوله ابلعي ماءك «وأقلعي» من الدلالة على الاقتدار العظيم وأن السماوات والأرض وهذه الأجرام العظام منقادة لتكوينه فيها ما يشاء غير ممتنعة عليه كأنها عقلاء مميزون قد عرفوا عظمته وجلالته وثوابه وعقابه وقدرته على كل مقدور ، وتبيَّنوا تحتّم طاعته عليهم وانقيادهم له وهم يهابونه ويفزعون من التوقف دون الامتثال له ، والنزول على مشيئته على الفور من غير ريث ، فكما يرد عليهم أمره كان المأمور به مفعولاً لا حبس ولا إبطاء . والبلع عبارة عن النشف والإقلاع الإمساك يقال أقلع المطر وأقلعت الحمى ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَآءُ ﴾ من غاضه إذا نقضه ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾ وأنجز ما وعد الله نوحا مِنْ هلاك قومه ﴿ وَٱسْتَوَتْ ﴾ واستقرت السفينة ﴿ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ﴾ وهو جبل بالموصل ﴿ وَقِيلَ بُعْدًا ﴾ يقال بعد بعدا وبعدا إذا أرادوا البعد البعيد من حيث الهلاك والموت ونحو ذلك ولذلك اختص بدعاء السوء ومجيء أخباره على الفِعْل المبني للمفعول للدلالة على الجلال والكبرياء ، وأنّ تلك الأمور العظام لا تكون إلا بفعل فاعل قادر وتكوين مكوّن قاهر وأن فاعلها فاعل واحد لا يُشارك في أفعاله ، فلا يذهب الوهم إلى أن يقول غيره : يا أرض ابلعي ماءك ، ويا سماء أقلعي ، ولا أن يقضي ذلك الأمر الهائل غيره ولا أن تستوي السفينة على متن الجودي ، وتستقر عليه إلا بتسويته وإقراره ولما ذكرنا من المعاني والنكت استفصح علماء البيان هذه الآية ورقصوا لها رءوسهم لا لتجانس الكلمتين وهما

قوله : (ابلعي) (وأقلعي) وذلك وإن كان لا يخلى الكلام من حسن فهو كغير الملتفت إليه بإزاء تلك المحاسن التي هي اللب وما عداها قشور»[1]

ولقد حرَصْتُ على نقل كلام الزمخشري كاملا في هذه الآية لأدلل بذلك على أنه قد احتذى صاحب أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز احتذاء لا يستطيع من يتعاطى التفسير هنا أن يتجاهله أو ينكره ، لكن الرجل قد احتل منارة عالية من الإعجاب والتقدير من المتناولين لتفسيره من أبناء الإسلام الذين وضعوه في أغلى وأعز مكان إذ أصبح مصدرا مهمًّا من مصادر التفسير يجذب المعلقين عليه ، والدارسين له مما يدل على أنه يستدعي العناية ويتطلب الاهتمام ، وهو ما يجب أن يحظى به في كل الأحوال .

* * *

(١) الكشاف ٢/٢١٧ ، ٢١٨ .